بركة العلم

قد ترى الرجل جيد المَلَكة، متوقد الذهن، سريع الإدراك قد انقطع لطلب العلم الشرعي، ووقف عليه جهده، ثم ترى أنه لم يأخذ منه حظاً، ولم يترك عليه أثراً؛ بل ربما شطح فيه شطحات، فلعلك تذكر كلمة ابن تيمية عن أهل الكلام: «أوتوا ذكاء، وما أوتوا زكاء، وأعطوا فهوماً، وما أعطوا علوماً»[(١)].

ثم ترى الرجل دون الأول في الإدراك والحفظ والألمعية، وقد منَّ الله عليه ببركة علمه، وعموم نفعه، ووفرة حظه فيه!

وترى الطالبَين يحضران نفس الدروس، ويحفظان نفس المتون، وتجد عند أحدهما من بركة العلم ما ليس عند الآخر!

فما سرُّ ذلك يا ترى؟

أليس الذكاء، والفطنة، والألمعية، وقوة الحافظة من أسباب النبوغ في العلم؟!

أليس الحرص في طلب العلم، والجد في تحصيله، ومثافنة الأشياخ في أخذه من أسباب تحصيل العلم، وإدراك مراميه؟!

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١١٩).

لقد تتابع أهل العلم في ذكر سر هذه الأمر، وأن الأسباب المحسوسة وحدها لا تكفي في نيل العلم الشرعي، ومن مأثور كلامهم في ذلك:

قال الإمام مالك: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يضعه الله في القلوب»(١)، وقال مرة: «العلم قَسْمٌ من الله»(٢).

وقال الإمام أحمد: «إنما العلم مواهب؛ يؤتيه الله من أحبَّ من خلقه»(٣).

وزاد هذا الأمر توضيحاً ابن حزم، فقال: «اعلم أنَّ كثيراً من أهل الحرص على العلم يجدِّون في القراءة والإكباب على الدروس والطلب، ثم لا يُرزقون منه حظّاً، فليعلم ذو العلم أنَّه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه، فصح أنَّه موهبة من الله تعالى»(٤).

ونظم هذا المعنى العلَّامة ابن القيم في «نونيته»، فقال:

والعلم يدخل قلب كل موفَّق ... من غير بوَّاب ولا استئذان
ويرده المحروم من خذلانه ... لا تشقنا اللَّهُمَّ بالحرمان(٥)

(١) الإلماع (ص٢١٧).
(٢) ترتيب المدارك (ص٥٧).
(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٥٩).
(٤) مداواة النفوس (ص٣٨٨).
(٥) نونية ابن القيم (ص١٦٥).

وأكد هذا المعنى ابن رجب فقال: «ليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب؛ يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل»[(١)].

ولما ترجم الذهبي لأبي سعد السمَّان في كتابه «السير» نقل عن الحافظ عبد العزيز الكتاني قوله: «كان أبو سعد من الحفاظ الكبار، زاهداً ورعاً، وكان يذهب إلى الاعتزال»[(٢)].

ونقل في ترجمته: «أنه كان إماماً بلا مدافعة في القراءات، والحديث والرجال، والفرائض والشروط، عالماً بفقه أبي حنيفة، وبالخلاف بين أبي حنيفة والشافعي وفقه الزيدية، وكان يذهب مذهب أبي هاشم الجبائي، ودخل الشام والحجاز والمغرب، وقرأ على ثلاثة آلاف شيخ، وقصد أصبهان في آخر عمره لطلب الحديث، وكان يقال في مدحه: إنه ما شاهد مثل نفسه، كان تاريخ الزمان، وشيخ الإسلام».

ثم علَّق الذهبي على ذلك قائلاً: «أنى يوصف من قد اعتزل وابتدع، وبالكتاب والسُّنَّة فقلَّ ما انتفع؟ فهذا عبرة، والتوفيق فمن الله وحده» ثم أنشد الذهبي:

هتف الذكاء وقال لست بنافع   إلا بتوفيقٍ من الوهَّاب[(٣)]

فقد اتفقت كلمة هؤلاء الأئمة السادة أن العلم إنما هو

---

(١) فضل علم السلف (ص٥٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٣).
(٣) المرجع السابق (١٨/ ٥٤).

محض توفيق من الله، يصطفي له من شاء من عباده، فهل يعني هذا أن يترك المرء فعل الأسباب؛ لأن العلم إنما هو موهبة من الله!

لا؛ بل يتحتم عليه الطرقُ للباب، والأخذُ بالأسباب؛ لكن عليه أن يلتفت مع ذلك لأعظم سبيل لبركة العلم، ألا وهو صلاح القلب.

وفي ذلك يقول أحمد بن عبد الرحمٰن بن قدامة: «علم أحوال القلب، كالخوف والرجاء، والرضى، والصدق، والإخلاص وغير ذلك؛ فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء»(١).

ويقول ابن جماعة: «العلم ـ كما قال بعضهم ـ صلاة السر، وعبادة القلب، وقربة الباطن، وكما لا تصلح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث؛ فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات، وحدث مساوئ الأخلاق ورديئها»(٢).

وأكد هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «القلب إذا كان رقيقاً ليناً كان قبوله للعلم سهلاً يسيراً، ورسخ العلم فيه وثبت وأثَّر، وإن كان قاسياً غليظاً كان قبوله للعلم صعباً عسيراً»(٣).

ثم قال: «ولا بد مع ذلك أن يكون زكيّاً صافياً سليماً حتى يزكو فيه العلم، ويثمر ثمراً طيباً، وإلا فلو قبل العلم،

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص١٨).
(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص١٦٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٥).

وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلم، وكان كالدَّغَل في الزرع إن لم يمنع الحب من أن ينبت، منعه من أن يزكو ويطيب، وهذا بيِّنٌ لأولي الأبصار»(١).

فتأمل كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلو قبل العلم، وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلم، وكان كالدَّغَل في الزرع إن لم يمنع الحب من أن ينبت، منعه من أن يزكو ويطيب» فإنه يلخص المشهد.

فالمعول على هذا القلب، فإذا صلح صلحت دروب صاحبه في العلم، وإذا كان مريضاً ناله من نقصان العلم بحسب مرضه، كما قال الرسول ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(٢).

وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

علَّق ابن تيمية على الآية فقال: «تعليم الرب، وتقوى العبد يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه؛ فمتى علَّمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك، ومتى اتقاه زاده من العلم، وهلم جرّاً»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧٨)، وحين تعليقه على الآية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «أكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة؛ لأنه لم يربط الفعل الثاني =

وقال في موضع آخر: «لا ريب أن الله يفتح على قلوب الأولياء المتقين وعباده الصالحين؛ بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه، ما لا يفتح على غيرهم»(١).

فتأمل قوله: (طهارة قلوبهم).

فالعلم النافع المبارك، وصلاح القلب رضيعا لِبان، وشريكا عِنان.

وقد نقل أبو بكر الـمَرُّوْذي عن الإمام أحمد إشارة في ذلك، فقال: «سمعت فتح بن أبي الفتح يقول لأبي عبد الله ـ يعني الإمام أحمد ـ في مرضه الذي مات فيه: ادع الله أن يحسن الخلافة علينا بعدك؟ وقال له: من نسأل بعدك؟ فقال: سل عبد الوهاب بن عبد الحكم، وأخبرني من كان حاضراً، أنه قال له: إنه ليس له اتساع في العلم؟! فقال أبو عبد الله: إنه رجل صالح، مثله يوفق لإصابة الحق»(٢).

= بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل؛ واتقوا الله يعلمْكم، ولا قال فيعلمكم، وإنما أتى بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، وقد يقال: العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال: زرني وأزورك؛ وسلم علينا ونسلم عليك ونحو ذلك مما يقتضي اقتران الفعلين والتعاوض من الطرفين... فقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢] قد يكون من هذا الباب؛ فكل من تعليم الرب..».

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٥).

(٢) كتاب الورع (ص٧).

فأنعم النظر[١] في هذه الكلمة العظيمة التي خرجت من هذا الإمام الذي استبطن دخائل العلم، واستجلى غوامضه، وغُذي بلِبَانه، في آخر لحظات حياته؛ فإنها تؤكد ما سبق، وأن الصلاح سبيلٌ للتوفيق في العلم، وإصابة الحق فيه، وأن واسع العلم قد يخذل؛ إذا لم يسعفه صلاح.

ومن الدعوات العظيمة التي اشتهرت عن العلامة ابن باز دعاؤه الدائم بـ: «اللَّهُمَّ أصلح قلبي» فقد كان يدعو بهذه الدعوة يوم كان قاضياً في الدلم قبل عام ١٣٧١هـ، وسُمعت منه لا يفتأ من تردادها في آخر عُمْرةٍ له عام ١٤١٩هـ.

وقد لخص الأسبابَ التي ينال بها العبدُ صحةَ القلب الإمامُ ابن القيم فقال: «صحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد... يمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى»[٢].

فاللهم أصلح قلوبنا، ولا تحرمنا بركاتك بذنوبنا.

(١) قولهم: أنعم النظر في الشيء، إذا أطال الفكرة فيه، وقيل: هو مقلوب أمعن. ينظر: تاج العروس (٣٣/ ٥١٢).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ٦٩).